مَوْسُوعَةُ
فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ القِيَامَةِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة القيامة

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة القيامة

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ
عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ٤ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ٥ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ٦ فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ ٧ وَخَسَفَ
ٱلۡقَمَرُ ٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ ٩ يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ ١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ
١٢ يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ١٣ بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ١٤ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ١٥﴾

افتتح الله تبارك وتعالى سورة القيامة بالقسم ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ وفي هذا القسم الرباني تعظيم ليوم القيامة، بل كان يوم القيامة هو المقسوم به، والمقسوم عليه متعلق بشأن يوم القيامة. وهو اليوم الذي يبعث الله تعالى فيه العباد من قبورهم، فيخرجون أحياء كما كانوا في الدنيا. وقد استهل القسم بحرف ﴿لَآ﴾ والذي مفاده تعظيم القسم وتوكيده. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى بعد أن ذكر الأقوال في ذلك: وأولى الأقوال عندي بالصواب قول من قال: إن الله أقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة. وجعل ﴿لَآ﴾ رداً لكلام قد كان تقدمه من قوم، وجواباً لهم[١] أي: رداً على من أنكر يوم القيامة. وقال القرطبي رحمه الله تعالى: وفائدتها: توكيد القسم في الرد[٢] على منكري يوم القيامة. وذكر ابن عاشور رحمه الله تعالى: لقصد المبالغة في حُرْمَة الْمُقسَم به[٣] وقال السعدي رحمه الله تعالى: إنما أُوتي به للاستفتاح، والاهتمام بما بعده، ولكثرة الإتيان بها مع اليمين لا يُستغرب الاستفتاح بها[٤] كقول القائل: لا والله ما قلت. أو: لا والله قلت، لتعظيم القسم. مما يفيد أن موضعها قد تضمن مقاصداً عدة: أحدها. الرد على منكري يوم القيامة. والثاني: توكيد القسم. والثالث: المبالغة في حرمة الْمُقسَم به، وتعظيم القسم. والرابع: لإثارة لاهتمام بما بعده من بيان. وأنه من أساليب

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣/٤٦٨)

(٢) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (١٩/٦٠-٦١)

(٣) ابن عاشور، التنوير والتحرير (١٢/٢٨٩)

(٤) ا السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٥/٣٣٩)

العرب، لكثرة ما يُؤتى به. مما يبين عزارة الحرف واللفظة في القرآن الكريم بحسب موقعها، وأنه يتحقق به مقاصد غاية في الأهمية. وبما يدل على الإعجاز البياني في سياقات القرآن العظيم، وأنه كلام معجز، لا يكون إلا من الله تعالى.

ثم عطف سبحانه وتعالى على القسم بيوم القيامة الْقَسَمُ بالنفس اللومة، فقال الله تعالى ﴿ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ وهو قسم بالنفس التي تلوم صاحبها على ما فاته، أي: تعاتبه، فيعاتب الإنسان نفسه، إما على تقصير حصل منه، أو لأنه لم يزدد من فعل الخير الذي كان من مقدوره. قال قتادة رحمه الله تعالى: حكمها حكم الأولى. أي أنه قسم مثل القسم بيوم القيامة. وفي معنى النفس اللوامة ثلاثة أقوال، قد لخصها ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أحدها: أنها المذمومة. قاله ابن عباس رضي الله عنهما. فعلى هذا: هي التي تلوم نفسها حين لا ينفعها اللوم. والثاني: أنها النفس المؤمنة. قاله الحسن. قال: ألا ترى المؤمن إلا يلوم نفسه على كل حال. والثالث: أنه جميع النفوس. قال الفراء: ليس من نفس بَرَّةٍ ولا فاجرةٍ إلا وهي تلوم نفسها، إن كانت عملت خيراً قالت: هلا زِدت. وإن كانت عملت سوءاً قالت: ليتني لم أفعل[١] قال القرطبي رحمه الله تعالى بعد أن ذكر مثل تلك الأوجه: فعلى هذه الوجوه تكون اللوامة بمعنى اللائمة، وهو صفة مدح، وعلى هذا يجيء القسم بها سائغاً حسناً[٢] مما يبين أن المؤمن كثير اللوم لنفسه على تقصيره، والفاجر يلوم نفسه يوم القيامة من حيث فقدانه لطاعة الله تعالى في الدنيا. وكذلك فإن اللوم من النفوس يحصل للجميع، فحتى الكافر في الدنيا يلوم نفسه على ما فاته من مكاسب الدنيا. غير أنه يقصرها على ملذات الدنيا فقط. فيقسم الله تعالى بما أودعه في النفوس مما يعينها على معاتبة النفس عند التقصير في الحقوق والواجبات، غير أن الجاحد الكافر ليس له حظ منها إلا فيما يلهيه، بسبب كفره وعدم إيمانه.

ثم يقرر سبحانه وتعالى لعباده الذين ينكرون البعث بعد الموت أنه عَزَّ وجل يجمع عظام العبد مهما تناثرت وتباعدت، بل حتى ولو احترقت. وقد أورد سبحانه وتعالى هذا البيان بسؤال استنكار، يُبطل به حسبان واعتقاد ومفاهيم المنكرين. فقال تعالى ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴾ أيعتقد ويظن هذا الإنسان المنكر للبعث بأنا لا نستطيع إعادة عظامه التي هي عماد بناء الجسد بعد تفرقها من أماكنها. فالآية الكريمة بتقريرها إعادة جميع عظام الميت، بجمعها بعد تفرقها وضمورها، إنما تعالج إشكاليات وأوهام استبعاد الجاهل بقدرة الله تعالى، وقصور الأفهام، والجهل بعظمة قدرة إرادة الله تعالى. فإن من آمن بأن الله تعالى على

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٣٣/٨)

(٢) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (٦١/١٩)

كل شيء قدير فإنه لا يعتقد هذا الاعتقاد، ولا يستبعد ذلك بتاتاً. فإن الله تعالى لا يعجزه شيء، فإن الذي خلق الإنسان من العدم، قادر على إعادته كما كان.

وأما علاقة هذه الآية بالقسم، فيقول الزجاج رحمه الله تعالى: أقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة: ليجمعن العظام للبعث. فهذا جواب القسم[١] ويقول ابن عاشور رحمه الله تعالى: وجواب القسم يؤخذ من قوله تعالى ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴾ لأنه دليل الجواب، إذ التقدير: لنجمعن عظام الإنسان[٢] فيقرر الله سبحانه وتعالى بالقسم بيوم القيام والنفس اللوامة لعباده الذين ينكرون البعث بعد الموت أنه عَزَّ وجل يجمع عظام العبد مهما تناثرت وتباعدت، فيبعثه كما خلقه. مما يفيد إظهار وبيان كمال قدرة الله تعالى على البعث بعد الموت، بحصول يوم القيامة.

وبعد أن قرر تبارك وتعالى للمنكرين ليوم القيامة على عظيم قدرته عَزَّ وجل على جَمْعِ عظام الإنسان التي هي عماد الجسد، فإنه يقرر لهم بعد ذلك كمال قدرته عَزَّ وجل على إعادة لحمه عليه بأدق ما فيه من مكونات وتفاصيل، وهي رؤوس أصابعه. فقال تعالى ﴿ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾ فليس الأمر والشأن هو كما يعتقد منكرين البعث، بل إن عظيم قدرتنا تجعلنا قادرين على إعادة أدق أجزاء الجسم، وهي أطراف الأصابع. قال الزمخشري رحمه الله تعالى: أي: أصابعه التي هي أطرافه، وآخر ما يتم به خلقه. أو على أن نسوي بنانه، ونظم سلامياته على صغرها ولطافتها، بعضها إلى بعض، كما كانت أولاً، من غير نقصان، ولا تفاوت، فكيف بكبار العظام[٣] فالاستدلال بالأدق من مكونات الإنسان دليل على غيره من المكونات الأخرى. ففي ذلك إظهار لبراعة الاستدلال، والإعجاز البياني في اختياره للبنان دون غيرها من مكونات الجسم. فإن في القدرة على إعادة أدق أطراف البدن، دليل على غيرها من مكونات الجسم.

وقد بدأ البيان بحرف ﴿ بَلَىٰ ﴾ الذي يفيد إبطال أقوال منكرين البعث، واستحالته. ثم يقرر بعده سبحانه وتعالى عن كمال القدرة الربانية في أدق مكونات الجسم، وهي أطراف الأصابع ﴿ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴾ والذي أثبت العلم الحديث أن أطراف أصابع كل أحد من الناس تختلف عن غيره، حتى أصبح البصم بها محل إثبات قطعي الدلالة على صاحبها. كما تشمل دلالة البنان جميع أطراف أصابع اليدين والرجلين معاً. كما أن في إظهار كمال القدرة الربانية في اختيار إعادة بنانة الإنسان ما يدل ويفيد على خصوصيتها، وما

(١) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (٦١/١٩)

(٢) ابن عاشور، التنوير والتحرير (٢٩٠/١٢)

(٣) الزمخشري، الكشاف (٦٦٠/٥)

انفردت به من عدم التشابه بين العباد، على الرغم من كثرتهم إلا أنهم لا يتشابهون في خطوط البنانة. فسبحان الله العظيم المبدع.

ومن دقائق البيان: أن في اختيار إعادة بنانة الإنسان دون غيرها من مكونات الجسم دليل على كمال القدرة في إعادة الإنسان على نفس خلقته التي كان عليها، من غير نقص ولا زيادة ولا اختلاف. كما أن دلالة ﴿ نُّسَوِّيَ ﴾ تفيد دقة الإعادة، بحيث يعيده كما هو، ويزيل جميع ما طرأ عليه من الاختلاف والتغيير. مما يبين دقة اللفظة في معناها ودلالتها، فاستوفت إعادته بعد حصول التغيير الذي طرأ عليه، من التآكل والانعدام. مما يبين عظيم قدرة الله تعالى. وأنه لا يعجزه شيء أبداً عَزَّ في علاه. وأن على المخلوق ألا يقيس قدرة الخالق على المخلوقين. فهو الذي خلق وسوى عَزَّ وجل. والمخلوق عاجز عن مثل ذلك.

ثم يخبر جَلَّ جلاله عن مُراد هذا المنكر ليوم القيامة، بأنه يريد أن يُقَدِّم فجوره في واقع حاله وقادم أيامه، وما يستقبله من الزمان القادم له. فقال عَزَّ وجل ﴿ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ﴾ بل يريد هذا الإنسان إنفاذ فجوره في مستقبل زمانه. فإنه في طمع وتوقان إلى أن يسعى في إنفاذ فجوره في حاله وقادم زمانه. بما يبين نيته التي أضمرها في نفسه لمستقبل حياته، بأن تكون خلف الشهوات تسير. كما أفاد البيان قوة عزمه للمراد الذي جزم به، وقوة الإرادة التي حزم نفسه عليها من أجل الفجور. وقد تقدم ذلك البيان الكريم حرف ﴿ بَلۡ ﴾ من أجل إظهار الانتقال إلى حال آخر من أحوال هذا الإنسان الْمُنْكِرِ ليوم القيامة، وتأكيد نيته، وعزيمته الفاجرة.

وقد أفادت دلالة الفجور ﴿ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ﴾ معنى الخروج عن طاعة الله تعالى، وذلك بفعل الفسوق وشدة السوء، فالفاجر هو الإنسان الْمُبَالِغ في صفة الكفر، وأنواع الباطل والفساد، فلا يبالي في شيء من ذلك، فيجمع بين الفسق في الأعمال، والفسق في الأقوال والاعتقاد. فقد أفادت صفة المبالغة في الوصف لمسلكه. كما أفادت دلالة ﴿ أَمَامَهُۥ ﴾ ما يُستقبل من قادم الأيام. فهو يريد الاستمرار في الفجور مما هو قادم من عمره، فتكون حياته على وتيرة واحدة من الفجور. مما يفيد ويبين أن ليس عنده نية في العودة للحق، بل شَدَّ عزيمته على ما نوى من الفسق.

ثم يخبر تبارك وتعالى أن هذا الذي أنكر يوم القيامة يتساءل تساؤل استبعاد للبعث، فقال جَلَّ شأنه عن هذا الإنسان، أنه ﴿ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ يسأل تعجباً واستنكاراً واستبعاداً ﴿ أَيَّانَ ﴾ أي: مستفهماً عن الزمن والوقت الذي يقع فيه ﴿ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ فهو سؤال استبعاد واستنكار له. ثم يُجِيب اللهُ تعالى عن ذلك بجواب يعلمه ويعلم غيره بأحوال يوم القيامة. فقال تعالى واصفاً ذلك بالعديد من التوصيف. فأول ذلك الوصف

هو: ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴾ أي: إذا حار وانبهر البصر فذلك يوم القيامة. فإن يوم القيامة يكون من شدته وهوله ذهول البصر. أي: فإذا حصل أن حار وانبهر البصر، وتَخَشع وتذلل من شدة هول ما يرى. فيكون ذلك يوم القيامة. وثاني ذلك الوصف، متعلق بتغير الكون: ﴿ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴾ أي: إذا ذهب وانطمس ضوء القمر، فيكون ذلك يوم القيامة. وثالث ذلك من الأحداث هو: ﴿ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ أي: جمع الله تعالى بينهما في ذهاب ضوئهما. قال القرطبي رحمه الله تعالى: ﴿ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ أي: جمع بينهما في ذهاب ضوئهما، فلا ضوء للشمس، كما لا ضوء للقمر بعد خسوفه. وقال ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم: جَمَع بينهما، أي: قَرَن بينهما في طلوعهما من المغرب أسودين، مكورين، مظلمين، مقرنين، كأنهما ثوران عقيران[١] مما يبين أن ليوم القيامة أهوال مذهلة، مرعبة، فيخشع وينبهر بها البصر.

ثم يخبر تبارك تعالى عما يصيب الكافر حين يرى تلك الأهوال. فيقول عَزَّ وجل ﴿ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴾ فإذا برق البصر، وجُمع الشمس والقمر، وأيقن أنه يوم القيامة الذي كان ينكره، ويجحده، ويكذب ويستهزئ به، فهنا يُصيب الكافر الذهول، والخوف والرعب ﴿ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴾ فيقول هذا الإنسان الذي كان يظن أن لن نجمع عظامه، والذي يريد أن يفجر أمامه ﴿ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴾ أين المهرب؟ فيستفهم ويسأل سؤال تحقق من وقوع العذاب به، لِمَا كان من إنكاره ليوم القيامة، والعمل بمعصية الله تعالى، مع الإصرار على ما كان عليه من الكفر والإنكار.

فيسأل: أين المهرب من العذاب، وذلك حذراً منه. فيقول تبارك وتعالى ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴾ لا، ليس هناك مَفَر، ولا ملجأ. فدلالة ﴿ كَلَّا ﴾ نفي من أن يكون هناك ملجأ يفر إليه أحد. ثم يؤكد ذلك بقوله عَزَّ وجل ﴿ لَا وَزَرَ ﴾ لا ملجأ يلجأ إليه أحد. ومعنى ﴿ وَزَرَ ﴾ ما يتحصن به الإنسان، كالجبل والمغارة، والحصن. فعن ابن عباس رضي الله عنهما: لا حِصن ولا ملجأ. وقال مُطَرِّف بن الشخِّير: هو الجبل، إن الناس إذا فروا قالوا: عليك بالوزر، وعن قتادة رحمه الله تعالى: لا حِصْنَ[٢] فلا ملجأ ولا حِصن، ولا جبل يمكن أن يتحصن

(١) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (٦٣/١٩)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣/٤٨٤-٤٨٦)

به، ويفر إليه، لأنه ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ﴾ إي: ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ حينئذ ﴿ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ﴾ أي: المنتهى الذي تنتهي إليه أيها الإنسان. فهو شأن وأمر حصري، بأنه إلى الله تعالى، وليس لغيره أبداً مفر.

ثم يخبر تبارك وتعالى بأنه في ذلك اليوم يُعْلَم ويُخبر هذا الإنسان بجميع ما كان منه. فقال تعالى ﴿ يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ فهذا اليوم هو اليوم الذي يُخبَرُ فيه الإنسان بما قدم قبل موته من خير أو شر، وما ترك من عمل خير أو شر، ثم عُمِل به بعد موته، سواء كان حقاً أو باطلاً، من خير أو شر. وبأول أعماله وآخرها. وبما قدم من الشر، وما ترك من الخير. وبما قدم من الأعمال الصالحة، وما ترك منها. وما قدم من المعصية، وما ترك من الطاعة. فإن هذا الإنباء جامع شامل لكل صغيرة وكبيرة. مما قام به من خير أو شر، وما تركه من خير أو شر. فهو استيفاء لكل ما كان من هذا الإنسان وما ترك، من خير أو شر، وقليل أو كثير. وقد ذكر أهل التفسير تلك الدلالات عند تناولهم تفسير هذه الآية الكريمة. مما يبين دقة الإحصاء على هذا الإنسان، حتى يستوفي الجزاء الذي يستحقه من الله سبحانه وتعالى.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى الإخبار بأن هذا الإنسان يعلم علم اليقين بما كان منه. فقال عَزَّ وجل ﴿ بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ﴾ إن الإنسان شاهد على نفسه بما كان منه، وذلك بشهادة جوارحه عليه، فيداه تشهدان بما كان منها ورجلاه تشهدان، وكذلك سمعه وبصره، وجميع جوارحه، فإنها تعترف بما أصابت، حتى ﴿ وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ فمهما كان اعتذاره بالمعاذير، فإن الشهود التي من نفسه تُقِرُّ عليه بما كان منه، فَتُبطِلُ عذره. بما يفيد أنه ليس للمعاذير أثر على ما جنى الإنسان واكتسب في حياته، فلا ينتفع بالجدال مهما كان هذا الجدال. فخير له طاعة ربه قبل يوم الحساب والجزاء. فإنها موعظة من الرحمن الرحيم لعباده قبل يوم الحساب، فمن شاء اتخذ إلى ربه طريقاً وسبيلاً ينجو به.

﴿ لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾

وبعد ما سبق من البيان عن يوم القيامة، وحال الإنسان فيها، ينقطع البيان الكريم عن شأن يوم القيامة لينتقل إلى شأن الرسول صلى الله عليه وسلم عند تلقيه القرآن العظيم، وما كان من حرصه الشديد على كمال ضبطه له. وهذا القطع للبيان الذي سيعود إليه التوجيه الكريم هو لبيان عظمة وأهمية ما توقف وانقطع الشأن من أجله. فقال الله تعالى مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ﴾ لا تحرك بالقرآن لسانك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم، لتتعجل بقراءته عند نزول الوحي إليك. فعن ابن

عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل جبريل بالوحي، وكان مما يُحرك به لسانه وشفتيه، فيشتد عليه، وكان يُعرَف منه، فأنزل الله تعالى الآية التي في ﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾[1] مما يبين شدة حرص النبي صلى الله عليه وسلم على حفظ وإتقان ما يتلقى من القرآن العظيم.

ولكن الله تعالى يعالج هذا الحرص بالتنبيه والتعليم، بأنه جَلَّ جلاله هو الذي يتولى تثبيت القرآن في صدره صلى الله عليه وسلم. فقال الله تعالى ﴿ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ﴾ فنحن نتولى جمعه في صدرك، فتقرأه بعد جمعه. بما يفيد فلا تشغل نفسك إلا بالاستماع.

فقد تضمنت الآية الكريمة ثلاثة أمور: الأمر الأول: ﴿ إِنَّ عَلَيۡنَا ﴾ إنَّا نحن نتولى. وهذه رفعة لمنزلة القرآن الكريم، ولمنزلة الرسول عليه الصلاة والسلام، وعظيم قدرة الله تعالى وعنايته برسوله صلى الله عليه وسلم وبالقرآن العظيم. والأمر الثاني: متعلق بالجمع ﴿ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ ﴾ إي: جمع القرآن في صدرك حتى لا يتفلت ويذهب عليك منه شيء. مما يفيد أن الله تعالى هو بقدرته قد حفظ القرآن في صدر النبي صلى الله عليه وسلم. وفي هذا عناية بالرسول عليه الصلاة والسلام، وعناية بالقرآن العظيم حتى لا يتفلت منه شيء، وكذلك حتى يبلغه إلى الناس كما هو. والأمر الثالث: ﴿ وَقُرۡءَانَهُۥ ﴾ أي: ونحن نتولى أن تقرأه بعد أن نجمعه في صدرك. فإن علينا إثبات قراءته على لسانك، حتى تقرأه بعد أن نجمعه في صدرك كما أُنزل إليك. فتنطقه كما هو، وأن يجري على لسانك سلساً من غير مشقة، ولا خطأً ولا نقص ولا زيادة فيه. مما يبين كمال قدرة الله تعالى، وعظيم عنايته بكتابه وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وكذلك عظيم وكمال قدرته. فمن المعروف أن الحفظ يحتاج تكرار وترديد، ولكنه لم يحصل ذلك. بل حفظه الله تعالى في صدر رسوله صلى الله عليه وسلم بمجرد استماعه من جبريل عليه السلام. مما يفيد أنه هو عَزَّ وجل الذي يعطي العلم، وهو الذي يثبته في الصدور، وهو الذي يجعل صاحبه ذرب اللسان، فصيح البيان. مما يُعَلِّم المؤمن بأن عليه أن يسأل الله تعالى تسهيل سُبُل العلم، وإتقانه، وتذكره وعدم نسيانه، وأن يُجرِيه على لسانه. خاصة فيما يتعلق بالقرآن الكريم، وعموم العلوم النافعة.

فقد أرشد الله تبارك وتعالى نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم في سورة طه إلى سؤاله زيادة العلم على ما علمه، فقال تعالى ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴾ فقل يا محمد سائلاً وداعياً ربك تبارك وتعالى أن يزيدك علماً. مما يبين فضل العلم، ومنزلته الرفيعة، وأن العلم من الله تعالى، يعطيه من يشاء بحكمته وتوفيقه وعونه، وأن الله جَلَّ جلاله هو الذي يهب العلم، وأن على المؤمن أن يطلب من الله تعالى مزيد العلم، كما علم رسوله

---

(1) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٤٩٢٩) ومسلم، صحيح مسلم، برقم (٤٤٨)

ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم هذا الدعاء ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ كما يفيد هذا كل من له مطلب وحرص على العلم، أن لا يستعجل في طلب العلم استعجالاً يُفَوِّت عليه ما قبله بالاختلاط، بل عليه أن يتريث بالاستماع الجيد، ثم ينتقل من مسألة إلى أخرى، بعد اتقانها، كما هو نهج الصحابة رضي الله عنهم مع القرآن الكريم. وفي هذا من الفوائد أيضاً ما يبين منهجية التعليم والتعلم كما سيأتي.

ثم يخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بمنهجية التلقي عندما ينزل عليه الوحي بالقرآن العظيم. فقال تعالى ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ فإذا قرأه جبريل عليك ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ فتابع قراءته بإنصات إليه، ثم اقرأه كما أقرأك. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: إذا تلاه الْمَلَك عن الله تعالى ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ أي: فاستمع له ثم اقرأه[1] كما يعطي أيضاً دلالة التطبيق. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: فإذا تُلي عليك فاعمل بما فيه من الأمر والنهي[2] وهذا يبين مراحل التعلم أنها أولاً بالإنصات، ثم الاسترجاع للعلم، ثم التطبيق.

وفي هذا فائدة في تعليم المنهجية الصحية للتعلم، بأن تكون بالإنصات والاستماع إلى العلم. لأن الاستعجال يقطع المتابعة، ويؤدي إلى فوات ما بعده. كما قال تعالى في سورة طه: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ فلا تبادر وتستعجل على جبريل قبل أن ينقضي وينتهي مما أوحاه إليك. مما يفيد اطمئن على حفظك وإتقانك لما نَزَلَ عليك من القرآن الكريم، فإن الله تعالى هو الذي يجمعه ويثبته في فؤادك، ثم من بعد إبلاغك به عليك أن تبلغ به غَيْرَك. مما يفيد أن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كان يتلهف للقرآن العظيم، وشدة محبته لكلام الله تبارك وتعالى، وحرصه على العلم، وإتقانه وإجادته على أكمل وجه. كما أفاد هذا أهمية تعليم الغير للعلم الذي تعلمه المسلم.

ثم يخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأنه عَزَّ وجل يكفيه في بيان كل ما يتعلق بالقرآن الكريم، فقال عَزَّ وجل ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ ثم بعد ذلك نحن نتولى بيان ما في القرآن من أحكام وتشريع. قال ابن عباس وعطيه والعوفي: تبيين حلاله وحرامه، وكذا قال قتادة[3] ولذلك تضمنت السنة النبوية التطبيق العملي الذي بينه الله تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام. مما يفيد أن الحلال والحرام وجميع أحكام الدين وشرائعه واضحة ولله الحمد في القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٤٧٩)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣/٥٠٣)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٤٧٩)

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٢١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥) كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ (٢٨) وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ (٢٩) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ (٣٠)﴾

ثم بعد أن قطع تبارك وتعالى الكلام عن يوم القيامة والمكذبين بها، وانتقل إلى شأن نزول القرآن الكريم على رسوله صلى الله عليه وسلم، بما يلفت الانتباه إلى عناية الله تعالى بكتابه العظيم، وبرسوله صلى الله عليه وسلم. فيعود بعد ذلك البيان الكريم مرة أخرى إلى شأن ما بدأت به السورة الكريمة عن أمر يوم القيامة. فقال عَزَّ وجل ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ إن الأمر في تكذيبكم بيوم القيامة، ليس إلا هو محبتكم للدنيا العاجلة، وإيثار شهواتها على الآخرة الباقية. فبدأ البيان الكريم بدلالة ﴿كَلَّا﴾ التي أفادت إبطال كل عذر غير محبة الدنيا، وإيثارها على الآخرة. ثم تلاها حرف ﴿بَلْ﴾ الذي يؤكد ما نفته ﴿كَلَّا﴾ مع إعطاء دلالة الإثبات لما بعدها بعد النفي ﴿بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ فإنما حملكم على التكذيب بيوم القيامة، ومخالفة الحجج والبراهين والآيات العظيمة التي أنزلها الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم هو محبتكم للعاجلة، التي هي الدنيا.

ومن دقائق البيان هو تسمية الحياة الدنيا بالعاجلة، وذلك توضيحاً وبياناً وتذكيراً بسرعة زوال الدنيا، فسرعان ما يُولد المولود، وسرعان ما يترعرع ويكبر، ثم تنتهي حياة كل مولود. بما يفيد أن الباقية هي الحياة الآخرة التي لا تزول ولا تنقضي ولا تنتهي. فاتعظوا أيها الناس واعتبروا خيراً لكم. ولذلك أعقب ذلك مباشرة قوله تعالى عن الآخرة ﴿وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ فتتركون الآخرة الباقية، بسبب محبتكم للعاجلة. فانتبهوا لِمَا أنتم عليه أيها الناس، وخذوا حذركم. فإنها موعظة في غاية النفاسة من الله تعالى لجميع عباده.

ثم يذكر ويُذَكِّر سبحانه وتعالى بحال الفريقين يوم القيامة، فيقول تبارك وتعالى عن أهل الإيمان ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ أي: مشرقة، بهية، حسنة المنظر، من النضارة التي هم فيها، بما يدل على ما يرون من البشائر بالخير، والنجاة من النار. بل ومن مزيد الفضل لهم أن أبصارهم ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أي: أنها ترى الله سبحانه وتعالى، وتنظر إليه عياناً. كما قال صلى الله عليه وسلم (إنكم سترون ربكم عياناً)[1] وهي أجل وأعظم النعم. قال السعدي رحمه الله تعالى: فإذا رأوه نسوا ما هم فيه من النعيم، وحصل لهم من اللذة والسرور ما لا يمكن

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٧٤٣٥)

التعبير عنه، ونضرت وجوههم فازدادوا جمالاً إلى جمالهم، فنسأل الله العظيم أن يجعلنا معهم[١] وهذا مما يدعو إلى إيثار الآخرة على الدنيا. وإيثار لذة ومتعة ونعيم الآخرة الدائم على شهوات الدنيا الزائلة.

ثم يذكر تبارك وتعالى وجوه الفجار، فقال تعالى ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴾ ووجوه أخرى ذليلة مُنهكة. فإنها تكون يوم القيامة كالحة منهكة، خاشعة من الذل والانكسار والرعب والخوف ﴿ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ قد استيقنت ﴿ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ أي: بأن الهلاك بالعذاب الشديد واقع بها. والفاقرة هي الهلاك والداهية من الشر والأمر العظيم، والظن هنا هو اليقين المؤكد الذي لا ريب ولا شك فيه. وهؤلاء هم الكفرة.

ثم يزداد الردع والزجر للإنسان الذي ينكر يوم القيامة، فيقول عَزَّ وجل ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴾ كلا ليس الأمر كما اعتقد وجزم هذا الإنسان بنكرانه ليوم القيامة. فقد أفادت ﴿ كَلَّآ ﴾ النفي مع الردع والزجر، ليأتي بعده تقرير حصول ما أنكره هذا الإنسان ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴾ فحقاً إذا اشدت الحال عند نزول الموت، وبلوغ الروح مقدمة الحلقوم. فحقاً أن المساق إلى الله تعالى إذا بلغت التراقي، وهي مقدمة الحلق، وهي شدة الحال عند نزول الموت، وبلوغ الروح عند خروجها مقدمة الحلق، وما يحصل للميت من النزع. فإنه إذا بلغت التراقي يكون حال أهله ومن حوله هو سؤالهم عمن يرقيه ويشفيه مما هو فيه من النزع. قال تعالى ﴿ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴾ أي: يسألون عمن يمكنه رقيته، ويشفيه ويعافيه مما هو فيه من النزع. فعن عكرمة رحمه الله تعالى: هل مِن راق يرقي. وعن الضحاك رحمه الله تعالى: هل من طبيب[٢] يتمنون له العافية جهلاً منهم بأنه الموت الذي لا علاج له، ولا مفر منه، ولا راد لقضائه سبحانه وتعالى.

وهنا استيقن أنه فراق الدنيا، والانتقال للآخرة ﴿ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴾ فأيقن أن الذي نزل به هو مفارقته للدنيا، ولملذاتها وشهواتها، وماله وولده وأهله ﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴾ أي: والتقت مفارقة الدنيا بدخول أمر الآخرة. واجتمعت فيه نهاية الحياة بالموت، والتفت ساقاه في الكفن. فإن من عظمت البيان أن عَظَّم الله تعالى تلك الحال وتفاصيلها بأدق وأجزل البيان. حتى استوفت جميع الأحوال التي يكون فيها الإنسان في تلك اللحظات. فعن ابن عباس رضي الله عنهما: آخر يوم من الدنيا، وأول يوم من الآخرة. فتلتقي الشدة

---

(١) ا السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٣٤٢/٥)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥١٣/٢٣)

بالشدة، إلا من رحم الله تعالى. وقيل: لَفَّهُا في الكفن. وقيل: التفاف الساقين عند الموت. وقيل: يُبسها عند الموت. وقيل: التفاف البلاء بالبلاء[١] بما يبين شدة هول وكرب الموت، مع هول ما هو مدبر عنه ومُقبل عليه.

ومن فوائد الدلالة اللغوية للساق، أن العرب لا تذكر الساق إلا في المحن، والشدائد العظام. ومنه قولهم: قامت الدنيا على ساق. وقامت الحرب على ساق[٢] مما يبين ويدل على قوة عربية القرآن في ألفاظه ودلالاته، وأنها شرط لفهم دقائق القرآن الكريم.

ثم يخبر الله جَلَّ جلاله بالمساق الذي يُساق إليه هذا الإنسان، فقال عَزَّ وجل ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾ فإن إلى ربك الذهاب والترحال والرحيل. فإنها تساق إلى المرجع والمآب، فإن الرجوع هو إلى ربك، حتى يجازيك بما كان منك، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. مما يفيد بهذا البيان الوعظ للعباد من ربهم الرحمن الرحيم، لعلهم يخافون ويؤمنون، ويصدقون، ويطيعون الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم. فإن ذلك بيان للأحياء بما هم قادمون عليه. ليكون ذلك للعالمين نذيرا. فالحمد لله تعالى على عظيم وعظه وإرشاده وبيانه المؤثر العظيم.

﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾

ثم ينتقل البيان الكريم إلى كشف ما كان عليه حال هذا الإنسان المكذب والمنكر ليوم القيامة، فيقول سبحانه وتعالى ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴾ فإنه نتيجة لكفره وعدم إيمانه، فإنه لم يصل لله تعالى. فإنه قد كذب ولم يصدق، وبناء على ذلك لم يؤد الصلاة التي هي لله تعالى. فقد ترتب على عدم الإيمان عدم الطاعة. ومن جزالة البيان الكريم أن أظهر الكفر في دلالتين وبكلمتين قد استوفت الكفر. فالأول: ﴿ فَلَا صَدَّقَ ﴾ وهو عدم الإيمان، وإنكار البعث، والآخرة، وجميع مقتضيات الإيمان. وبناء على هذا الإنكار وعدم التصديق تحقق فيه الأمر الثاني: ﴿ وَلَا صَلَّىٰ ﴾ فلم يصل لله تعالى. ولم يتم ذكر شيء آخر من العبادات، لأن من لم يؤمن، لن يصلي، وبالتالي لن يعمل أي شيء من أعمال الطاعة لله تعالى ﴿ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ ولكن كذب بكل ما

(١) المرجع السابق (٢٣/٥١٥-٥٢٢)

(٢) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (١٩/٧٣)

جاء عن الله تعالى، فكذب بالرسول صلى الله عليه وسلم، وكذب بالقرآن العظيم، وكذب بالبعث وأنكره ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ وأعرض عن الإيمان، فلم يتدبر ولم يتأمل. بل أعطت وأفادت دلالة ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عدم الاهتمام والاكتراث إلى أقصى غايته، ليفيد الطغيان.

ثم يخبر سبحانه عن هيئة هذا الإنسان الكافر وهو ذاهب إلى أهله، وقد تولى عن الحق معرضاً. فقال تبارك وتعالى عنه ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ ثم بعد أن تولى عن الحق ذهب متجهاً إلى أهله ﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾ أي: يتبختر، ويختال. وقد وردت هيئته بصيغة الفعل المضارع المستمر ﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾ لتفيد استمراره ومتابعته في كبريائه وتبختره واختياله، بعد توليه في إصرار وعزم على كفره. ثم يعظه الله تعالى وأمثاله بالتهديد والتقريع والوعيد. فقال عزَّ وجل ﴿أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ﴾ فهلاك لك بعد هلاك. فإن دلالة هذا السياق تفيد الوعيد الشديد، ثم أعقب ذلك بمزيد التكرار لذلك الوعيد. فقال تعالى ﴿ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ﴾ فهو وعيد بعد وعيد. أي: ليلي شأنك المكروه. قال الزجاج رحمه الله تعالى: العرب تقول: أولى لفلان، إذا دعت عليه بالمكروه، ومعناه ولِيُّك المكروه يا أبا جهل(١) فهو يعم أبا جهل وغيره ممن تولى عن الحق.

ثم يخبر الله تعالى عن خطأ حسبان هذا الإنسان الكافر المعاند الذي يظن أنه في هذه الدنيا يعيش هملاً، فلا ضابط له، يضبط مساره وتصرفاته. فقال تعالى ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾ أيعتقد هذا الإنسان الكافر أنه متروك بلا تكاليف ﴿أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾ أي: تائهاً مهملاً. فهو سؤال استنكار لظنه المبني على حسبان واعتقاد خاطئ، بأنه يعيش في الدنيا مُهملاً لا غاية ولا هدف من خلقه ووجوده. ففي هذا البيان من الله تعالى ما يصحح به من كان اعتقاده هذا الاعتقاد الفاسد الباطل. فيبطله سبحانه وتعالى بتقرير النفي بدلالة الاستنكار. مما يفيد إزالة الجهل المركب في ذهن هؤلاء، بأن الأمر ليس كذلك، ليعيش من غير أن يُؤمر ويُنهى، ويُثاب ويُعاقب.

بدليل أن عليه أن يتدبر ويتأمل خلقه، الذي يتبين به أن الله تعالى هو الذي أوجده، وما أوجده إلا لهدف وغاية، لأن الله تعالى ما أوجد شيئاً في الكون عبثاً، من غير غاية ولا هدف. فلا مخلوق إلا وهو منوط بهدف وغاية من خلقه، فتعالى الله تعالى عن العبث. وقد نهج البيان الكريم منهجاً غاية في الدقة لإعادة هذا الكافر إلى التأمل في أصل خلقته، حتى يصحح له مفاهيمه الخاطئة عن مفهوم الحياة، وعن وجوده في هذه الحياة الدنيا، فقال تعالى ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ﴾ ألم يكن ذلك الإنسان قطرة من مني ﴿يُمۡنَىٰ﴾ أي:

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٤٠/٨)

يُوضع من الرجل في رحم زوجته. فإن أصله نطفة من مني، تخرج من بين صُلب الرجل وترائب المرأة، وسُمّيّ نطفة لقلته، إذ هي قطرة صغيرة. فهو إيجاد له بعد العدم من تلك النطفة ﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ ثم انتقلت أطوار خلقه من نطفة إلى علقة ﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً ﴾ فتحولت النطفة إلى علقة. فبالرغم من صغر حجم هذه النطفة وضعفِها إلا أنها تتحول بقدرته عَزَّ وجل إلى علقة. وهو الدم الجامد الذي تحول وتَكَوَّنَ من المني الأبيض، إلى قطعة دم حمراء. ثم تتحول هذه العلقة التي هي عبارة عن دم أحمر إلى لحمة كالمضغة الصغيرة التي يمضغها الإنسان. وحفظها سبحانه وتعالى بقدرته في الرحم حتى يتكون الجنين. فتكون هذه النطفة وتحولاتها في حرز من الاستقرار والثبات الذي قضى الله تعالى به حتى بلوغ أمره لما بعده من أطوار الخلق والتكوين. ثم قال تعالى ﴿ فَخَلَقَ ﴾ أي: فخلق هذا الإنسان، ونفخ فيه الروح ﴿ فَسَوَّىٰ ﴾ أي: فأنشأه بتكوينه وصُنْعِه، فخلقه في أحسن تقويم. ليخرج من بطن أمه على أحسن هيئة.

ثم يذكر تبارك وتعالى عظيم تدبيره، بأن جعل من هذه النطفة الذكر والأنثى. فخلق هذا ذكراً، وهذا أنثى. فقال تعالى ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴾ فإن من عظيم قدرة ربكم سبحانه وتعالى أنه خلق من هذه النطفة الصغيرة الذكر والأنثى، ليكون كل واحد منهما زوجاً للآخر، فالذكر زوج للأنثى، والأنثى زوج للذكر. وهذا يشمل جنس الإنسان، وينطبق على الحيوان. وهذا التجانس التكاملي بين الذكر والأنثى آية ظاهرة لمن تمعن فيها. إذ تدل على عظيم تدبيره واختراعه سبحانه وتعالى. بما يفيد ويبين كمال قدرته التي لا حدود لها. مما يستوجب على العباد توحيد ربهم عَزَّ في علاه، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، والإيمان بكل ما أخبرهم به. ومن ذلك البعث والنشور، والحساب والجزاء، والجنة والنار.

وفي هذا كمال الاستدلال بأن من له كمال هذه القدرة العظيمة في الخلق والإنشاء ابتداء فإن له أيضاً كمال القدرة على إعادة الإنسان كما كان عليه قبل موته، فما المانع من ذلك؟ وقد تجلت لكم كمال قدرته عَزَّ وجل في خلقكم أيها الناس. ثم رَتَّب سبحانه وتعالى على كمال هذا الخلق والتدبير سؤالاً يعيد الإنسان إلى الإيمان بنفي العجز، وإثبات كمال القدرة لله تعالى، ولتكون ختام سورة القيامة العظيمة المباركة، فقال تعال ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أليس هذا الذي خلق الإنسان بهذه القدرة، وهذا النظام العظيم بقادر على إعادة إحياء الموتى بعد فنائهم؟ سؤال يقرر به كل عاقل بأنه قادر على ذلك، وعلى كل شيء، سبحانه وتعالى.

فإن كمال القدرة على الخلق دليل كذلك على كمال القدرة على إعادة خلق الإنسان. فإين الاستحالة إذاً؟ فما هي إلا أوهام في عقول من لم يفكر في عظيم مخلوقات الله تعالى، وكمال تسخيره، وعظيم قدرته وتدبيره. وقد ورد البيان بصيغة السؤال الذي يقرر القدرة الربانية، وهو كذلك السؤال الذي يستثير الذهن نحو التفكير. وهو السؤال الذي يثير التعجب من حالهم أمام عظمة الخلق. وهو السؤال الذي يستنكر عليهم تَغْيِّيب عقولهم

عن التأمل والاستدلال والاستنتاج والقياس. فإن كل عاقل يقول تصديقاً وإيماناً بأن الله تعالى له كمال القدرة على كل شيء.

مما يبين أن منهج القرآن في تعليم العباد وتصحيح مفاهيمهم قائم على الاستدلال بالمنظور والمحسوس والمعروف على الغيب الذي غاب عن الإنسان. بل يتدرج في ذلك مع التنوع في الأدلة والحجج، وكذلك الجمع بين الترغيب والترهيب. مما يدل على عظيم رحمته بالعباد، إذا يُظهر لهم جميع وسائل الهداية، غير أن بعظهم غرتهم الحياة الدنيا بشهواتها، وزخرفها، وكذلك منعهم الاستكبار والحسد من اتباع الحق. وهذه المنهجية تُعَلِّم المؤمن أسلوب الاستدلال، والقياس، وتُوسع عقله ومداركه في هذا الشأن، وفي غيره. مما يبين أن علم القرآن الكريم علم عظيم، لا يدانيه ولا يجاريه علم. ونسأل الله تعالى أن يفتح علينا وعلى المسلمين أبواب العلم والخير والهدى وحُسن الخاتمة، والفوز بالجنة، والنجاة من عذاب القبر والنار.

وأحمد الله تعالى وأشكره على ما أنعم به عليَّ من شرف هذا العمل، فوفقني على إتمام سورة القيامة. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.